

التواضع

"وأما من جهتي فلا أفتخر إلا بأوهاني"

التواضع هو أساس كل الفضائل، الحجر الأساس، بدونه لا يقوم بناء الفضائل. "إذا كانت أم كل الشرور هي الكبرياء، فإن أم كل الفضائل هو التواضع". التواضع هو بدء النهوض لأن الكبرياء كانت بداية السقوط. لكن هل التواضع هو مذمة الذات أو قتل طاقاتها وإنكار مواهبها؟ وهل كل ضعة هي تواضع؟ ليس كل من يقول عن نفسه إنه خاطئ هو المتواضع القلب، يقول القديس دوروثيوس^١، وليس من يؤنب ذاته بل من يقبل تأنيب الآخرين. التواضع هو "دموع دائمة مع توجع قلب في الصلاة أمام الله"^٢. ليس من يحيا في الضعة هو المتواضع بل من يتضع أمام الناس لكي يرتفع في عين الله^٣، ليس المتواضع هو المضطرّ يذلّ ليوضع نفسه، وإنما من له أن يفتخر لكنّه مع ذلك لا يتعالى^٤.

التواضع سلّم عقليّة، وهنا بولس الرسول يرسم درجاتها الثلاثة. "الافتخار بحق" هو أولى الدرجات. فبعد أن يعدد بولس الرسول بعض الرؤى والاضطهادات التي تحملها حباً بالمسيح يقول: "فإنني لو أردتُ الافتخار لم أكنُ جاهلاً، لأنني أقول الحق". فالتواضع أولاً هو ألا ننسب لأنفسنا إنجازات وفضائل ليست منّا ولا فينا. التواضع هو تجنّب العجب الكاذب، إنّه الاعتدال والاحتشام المناقض للزهو والعجب وحبّ الظهور.

أما الدرجة الأسمى في التواضع فهي "عدم الافتخار" وإخفاء الفضائل، وذلك كما فعل بولس الرسول هنا. "أعرف إنساناً في المسيح (وهو بولس ذاته، لكنّه لا يورد اسمه) منذ أربع عشرة سنة... اختطف إلى السماء الثالثة". فهو أولاً يخفي اسمه، كما فعل أيضاً يوحنا الحبيب حين تكلم "عن التلميذ الذي كان يسوع يحبه" وكان هو بالذات لكنّه أخفى اسمه. أما بولس فلقد أخفى هذه الخبرات مدة ١٤

^١ دوروثيوس، ١، ٦، [PG 88, 1625A].

^٢ مكسيموس المعترف [PG 90, 1044].

^٣ أكليمنطوس الاسكندري، "البساط"، ٣، ٦، [PG 8, 1152].

^٤ يوحنا الذهبي الفم، "في اللامدرك"، ٥، ٦.

سنة عن مسامع الجميع، وهو هنا لولا تشكيك المعلمين الكذبة برسالاته ورسوليته وتهديد البشارة فإنه ما كان لييوج بذلك مؤكداً سلطة تعليمه. سأل أبٌ روحيّ تلاميذه "مَن باع يوسف؟"، قالوا إخوته. أجب هو لا، بل تواضعه. لقد أخفى على مَن اشتروه أنه أحٌ لإخوته الذين باعوه، وأنه يحمل كرامتهم ونسبهم وحقوقهم، وقيل ما وصفوه به كعبد حتى أن يُباع! نسيان ما حقّقناه وعدم الافتخار به هو التواضع في درجته الثانية.

أمّا التواضع الكامل فهو "الافتخار بالهوان" وليس بالكرامة. أي أن يُشهر الإنسان، أمام عينيه وأعين الناس، ليس فضائله بل ضعفاته. هكذا كان بولس يكرّر في رسائله عبارة "بولس مضطهد كنيسة المسيح". وهنا في الرسالة إذ يعلن عن خبرات روحية سامية ونادرة وصعود إلى السماء الثالثة وعن ضيقات احتملها شهادة لاسم يسوع، فإنه يؤمن أن هذا كلّه كان ثمر النعمة المجانية الإلهية، "أمّا من جهة نفسي فلا أفتخر إلاّ بأوهاني". لقد تحقّقت على يد بولس إنجازات عظيمة ووهبته النعمة خبرات روحية فريدة، لكن هذا كلّه كان هبةً. لقد خلّصه يسوع لكنّه هو "أخطأ الناس". لقد جاء يسوع ليخلص الخطاة وهالك البرهان: "أنا أخطأ الناس"، فإذا كان قد خلّصني أنا آخر الناس إذن لن يبقى إنسان يأس بخلاصه. لقد انتقلت على يد بولس البشارة وجرت عجائب... لكن مَن فعل ذلك ليس بولس بل نعمة الله، فهو يعرف أوهانه الكثيرة التي عوّض عنها فيض النعمة: "لأنّ قوّتي [قوة الله] في الضعف تكمل". "فبكلّ سرور أفتخر بالحريّ بأوهاني لكي تستقرّ فيّ قوة المسيح".

هكذا يعدّد السلمي تعاريفاً عن التواضع، تتوافق مع الدرجات الثلاث السابقة: "التواضع نسيان دائم لما أنجزناه..."، "التواضع إدراك النفس لضعفها وعجزها"، "هو معرفة الإنسان لنعمة الله عليه". هكذا كان الرهبان يعتبرون الأعمال الحسنة التي يقومون بها ويعرفها الناس خطيئةً وليس فضيلة. وشهيرة قصة ذلك الراهب الذي تناول الجبن في الصيام أمام ملكة إسبانيا التي كانت تقصده إعجاباً بحياته وبما سمعت عنه. والراهب الآخر الذي قصده بعض المبتدئين لما سمعوه عن صومه وتقشفه، لكنهم بدّلوا رأيهم لما وجدوه يشرب الماء باستمرار دون صيام، وإذ بهم يندهشون عندما اكتشفوا أنّها كانت مياه البحر المالح!

التواضع الكامل هو إشهار الضعفات وإخفاء الفضائل، وهذا ليس تظالماً على الذات ولا من باب التحقير أو الكذب، لا سمح الله! لكنّه تواضع جاء بعد خبرة عميقة من سخاء النعمة. إنّه التواضع الذي يملك أن يفتخر بإنجازات كبيرة، لكنّه يعرف أنّ النعمة هي التي حقّقت، أمّا من جهة ذاتنا البشرية فليس

أمامنا إلا أوهاننا! "لا أنا بل نعمةُ الله". "لا لنا يا ربّ، لا لنا، بل لك المجد"، "وكلّ ما فعلناه فإنّما نحن عبيد بطّالون".

لقد علّم الفلاسفةُ عن التواضع، لكن على أسس ليست كهذه الأسس المسيحيّة. لقد نصح أرسطو بالاعتدال وممارسة التواضع الذي هو الفضيلة الوسط بين رذيلتين: الجبن من جهة والادّعاء من جهة أخرى! لكن التواضع المسيحيّ ليس فضيلة هكذا. التواضع هو اعتراف بنعمة الربّ وشفقته وعضده. "أستطيع كلّ شيء" - "بالمسيح الذي يقويني". التواضع المسيحيّ ليس أدباً بين التردّد والخوف وبين الزهو والتبجح! التواضع المسيحيّ هو بالأساس حالة شكر للنعمة والله، إذ مع المتواضع تتحقّق أمور عظيمة لكنّه يعرف أنّه "ليس لمن يسعى أو يركض لكن للربّ الذي يرحم" (روم ٩، ١٦).

لهذا يسمّى التواضع هديّة النعمة! من لا يعرف النعمة والمحبة الإلهيتين وفيضهما ويشعر بالانكسار أمام رافات الله به لا يمكنه أن يتواضع، بل التواضع هو الشعور بذلك ورفع الشكر لله بدل شكر الذات ومدحها. كلّ إنجاز إذن يقود المتواضع إلى انسحاق وامتنان أكبر للنعمة التي عملت واعتراف واضح بالأوهان الشخصية التي فاضت النعمة عليها فمسحت ضعفها وحققت ما أرادته الله بواسطة اعترافنا. التواضع الكامل معرفة حقيقية لا تسلب النعمة الإلهية حقّها! التواضع الكامل خبرة مع النعمة كشفت للإنسان دورها فيه بعد أن كان يجهل النعمة ويمتدح ذاته. نعم هذا ما يعلنه بولس قائلاً: "أنا ما أنا بنعمة الربّ" (١ كور ١٥، ١٠)، "لا يوافقني أن أفخر"، "رغم أنّي لو أردتُ أن أفخر لم أكن جاهلاً"، بل "من جهة نفسي فلا أفخر إلا بأوهاني" لأنّ نعمة الله كملت في ضعفي". هذه سلّم التواضع بدرجاتها الثلاث، التي أوّلها على الأرض وثالثها في السماء، حيث تطأ رجل من قال "تعلموا منّي فإنّي وديع ومتواضع القلب"، أمين.